دمشق تتقرب الى عكة

للدكتور اسد رستم

بينما كان لبنان يخف لنجدة مصر عام ١٨٣١م ويقدم لها المساعدة الواحدة تلو الاخرى فيجاهر بالخروج على السلطان [١] ويقاتل في سبيل الشقيقة في طرابلس قتال الابطال ويؤمن الذخائر والمؤن في سهل البقاع ويقوم بحفظ الامن في القسم الكبير من البلاد المغلوبة ويلبي الطلب في هذا الامر وذاك [٢] بينما كان لبنان يصدق هذا السعي لمصر ويبذل طوقه في سبيلها كانت دمشق تتقاعس عن مساعدة الفاتح المصري وتنقبض عن اسعافه. وزاد تطرفها في هذا الامر الى ان اقفلت ابوابها في وجهه وتجهزت لحربه فتصدت له بالقرب من داريا قاصدة قطعه عن عزمه وإحالته عن قصده [٣]

هذه حقيقة تاريخية كنا نرددها بالامس ولانزال نقول بها اليوم. ولكن طالما توخينا وحاولنا ان نعرف اسبابها فاعترضتنا عقبة السكوت في بعض الاصول والغموض في غيرها فحبستنا عن حاجتنا. ولم يتوافر لدينا وقتئذٍ من معالم الطريق سوى بعض الروايات المبهمة او الممرَّضة في مخطوطتي برلين [٤] ولندن [٥] وكتاب الدكتور

---

(١) قال القس انطون الحلبي في رسالته الى البطريرك يوسف حبيش بتاريخ ٢ كانون الثاني سنة ١٨٣٢ ما ياتي: « نعرض حضر تاتار من الاستانة ومعه تحرير لسعادة الامير بشير من وكيل الصدر الاعظم ومن انصاري عسكر فحواه ان سعادته يكون في خاطر عكه والجواب رجع من سعادته يقول لجناب الامير امين ان يصرف التاتار ويفهمه ان ما في جواب بل حين الدوله تبقي تسال عن رعاياها تبقي الرعايا تسال عن خاطر الدولة هذا هو الجواب لسانا فقط » مجموعة بكركي ومجموعة جامعة بيروت الاميركية تحت تاريخ سنة ١٨٣٢ (٢) اطلب مخطوطة القس انطون الحلبي كما ضبطناها عام ١٩٢٧ ج ١ ص ١ — ٢٣ وكذلك كتاب اخبار الاعيان للشيخ طنوس الشدياق تحت اخبار سنة ١٨٣١ و ١٨٣٢

(٣) راجع ما قاله قنصل فرنسا في عكه وقتئذ في المجلة السورية ج ٤ ص ١١٦ (٤) منها نسخة بالزوتوغراف في مكتبة جامعة بيروت الاميركية وقد نشرها منذ سنتين او اكثر الخوري قسطنطين باشا تحت هذا العنوان مذكرات تاريخية — حر يصا لبنان (٥) نشر بعضها الاب لويس معلوف اليسوعي بعنوان تاريخ حوادث الشام ولبنان ولعل مؤلفها هو مخائيل الدمشقي كما ورد في مقدمة الاب لويس لها

مخائيل مشاقه المشهور [١] وغيره وبعض الاخبار الفردة الغريبة في كتاب كاد الفان وبارو ورسالة فيدال وغيرهما [٢] فقد جاء في مخطوطة برلين في الكلام عن ثورة دمشق وقتل محمد سليم باشا عام ١٨٣١ م ما يأتي : وبعد دخول الوزير محمد سليم باشا بثلاث ايام هرب الجوربجي محمد اغا الداراني بالليل الى بيت الشوملي بالميدان فلما بلغ ذلك الوزير اغتاظ وارسل له امراً انه لا يقعد في حكمه فالتزم توجه الى عكا ولما مضى من الحصار خمسة عشر يوماً شاع الخبر ان الجوربجي الداراني الذي كان هرب الى عكا حاضر منها صحبته كيخية عبدالله باشا وقبل ان يحضر الجوربجي كانت المادة تناقصت وبعد حضوره تجسمت وتقوت المتاريس والناس تواقحوا وصار الجوربجي راس الجميع وظهر ان هذه ارادة عبدالله باشا والي عكا [٣] وجاء في مخطوطة لندن ما نصه : « ومحمد سليم باشا كان يفتكر يجيه اسعاف من جهات وجميع الناس صاروا ضده من الجملة عبدالله باشا والي عكا كان يرسل يقوي عبارة اهل الشام كذا شاع عنه » [٤] وكذلك الدكتور مشاقه فانه قال في مخطوطته المشار اليها سابقاً ما ياتي: « ثم حضر من عكا الجربجي الداراني الذي كان نازحاً اليها من وجه سليم باشا والقول ان عبدالله باشا ارسله لاتمام ما جرى بعد ذلك لغاية ما لانه كان صاحب سطوة جسيمة بين كبراء دمشق » [٥] ولا يخفى ما في هذا القول جميعه من صيغة التمريض والابهام كما يتضح من قول المؤرخ المجهول في المخطوطة البرلينية « وظهر» وقول مخائيل الدمشقي«وشاع » واكتفاء الدكتور مشاقه بكلمة « والقول»

---

(١) الجواب على اقتراح الاحباب، منه نسخة قديمة في مكتبة جامعة بيروت الاميركية. اما الاصل الذي هو بخط المؤلف فانه لا يزال محفوظاً لدى جرجس بك صفا في بيروت

(٢) Cadalvene et Barrault , Guerre de Syrie 151 — 152 ; H .Vidal, Bulletin de la Soc . de Geog. Juillet, 1836 , 20 .

(٣) مختصرة عن الاصل. اطلب ما طبعه الاب قسطنطين الباشا — مذكرات تاريخية — ص ٥ و ٧ و ٢٢ — ٢٥ و ٣٨

(٤) تاريخ حوادث الشام ولبنان لناشره الاب لويس معلوف اليسوعي (طبع بيروت سنة ١٩١٢) ص ٥١ .

(٥) نسخة جامعة بيروت الاميركية ص ٢٣٣ — ٢٥٣

وكذلك فان قول المؤرخين الافرنج المشار اليهم آنفاً لا يخلو من الترجيم ولا يخرج بعضه عن حد المظنونات . غير اننا مع اقرارنا بهذا التمريض والترجيم والابهام كله كنا نأمل ان نستبصر بهذا القول عن مقتل محمد سليم باشا فنكشف القناع عن موقف الدمشقيين الحقيقي تجاه النزاع الذي وقع بين والي عكة وعزيز مصر وقتئذٍ ونحسر اللثام عن امياهم السياسية

وهكذا جرى فاننا توفقنا والحمد لله عام ١٩٢٧ فوجدنا في سجل المحكمة الشرعية بمدينة دمشق رسالتين من عبدالله باشا الى اهالي هذه البلدة يرجع عهدهما الى سنة ١٨٣١م . ويدور منطوقهما حول مقتل سليم باشا وخروج محمد علي باشا الى سورية ومع اننا لا نجد في هاتين الرسالتين نصاً صريحاً على حقيقة موقف الدمشقيين آنئذٍ فانه بامكاننا الان ان نبدأ بالخروج من حيز الظن الى جهة الترجيح واليقين — ترجيح ما اومأته الينا به تلك المقدمات وما صوّره لنا ذلك الظن

نص الرسالة الاولى : بيورلدى بختم كبير من حضرة عبدالله باشا والي عكا صدر الموالي العظام عمدة العلماء الكرام ونخبة الفضلاء الفخام ذو الفضل واليقين رافع أعلام الشريعة والدين وارث علوم الانبياء والمرسلين المختص بمزيد عنايت الملك [المعين] قاضي محروسة دمشق الشام حالا افندي زيدت فضائله وافتخار العلماء الكرام وزبدة الفضلاء الفخام الماذون بالافتا افندى [زيدت] علومه وفرع الشجرة الزكية وطراز العصابة الهاشمية قايمقام نقيب الاشراف افندى زيد شرفه ومفاخر اقرانهم علماء المدينة واعيانها ووجوهها وارباب التكلم بوجه العموم زيدت مقاديرهم بعد السلام التام بمزيد الاعزاز والاكرام المنهى اليكم اطلعنا على عرضمحضركم المتضمن التخبير عنما حصل من المرحوم محمد سليم باشا وقتله كتخداه وما حصل بهذه الحركة بينه وبين الحراس وقتله ثلاثة انفار منهم وانه اخيرا جلس على صندوق باروت وقوصه بيده فاحترق هو والاوده بما فيها فلما بلغ ذلك اعيان البلدة توجهوا اخرجوا اتباعه بالسلامة وسيروهم من الشام بالامن والحراسة وحررتم الموجودين التي

بالاوده التي احترقت بالمشار اليه واما امين بك افندي المأمور من طرف حضرت ولي نعمتنا الدولة العلية صانها وحرسها رب البرية فهو مقيم بالراحة والرفاه في قوناق احدكم الحاج محمد اغا الداراني وجميعا شرحتوه واعرضتوه صار معلوم فنخبركم ان قبل تاريخه عرضمحضركم الذي ارسلتموه لطرفنا قدمنا اعراضه لجناب العتبة العلية الملوكية فلا زالت على الدوام مصانة ومحمية صحبة سرتاتاران بابنا والان عرضمحضركم هذا قدمنا اعراضه ايضاً لجانب العتبة العالية الملوكية صحبة تاتاران بابنا ونحن بانتظار الاوامر الشريفة والارادة السامية الشاهانية بمصلحة ايالت الشام المراد تكونوا متنبهين لحفظ الموجودات وراحة البلدة الى حين ورود الاجوبة لنا من جانب حضرت ولي نعمتنا الدولة العلية والسلطنة السنية اعز الله تعالى انصارها وقوى شوكة اقتدارها فبناء على ذلك اصدرنا لكم بيورلدينا هذا من ديواننا في قلعة النصر داخل دار الجهاد محروسة عكا المحمية عن يد رافعه فبوصوله ووقوفكم على مضمونه تعلموه وتعملوا بموجبه وتعتمدوه غاية الاعتماد في غرة ج سنة ١٢٤٧ قيد سند في ٦ ج سنة ٤٧ بختم صغير

نص الرسالة الثانية : بيورلدى باختم كبير من عبد الله باشا والي عكا صدر الموالي العظام عمدة العلماء الكرام ونخبة الفضلا [الفخام] معدن الفضل واليقين رافع اعلام الشريعة والدين وارث علوم الانبياء والمرسلين قاضي محروسة الشام حالا مولانا افندى زيدة فضائله وافتخار العلماء الكرام ونخبة الفضلاء الفخام الماذون بالافتا بها افندى زيدة علومه وفرع الشجرة الزكية وطراز العصابة الهاشمية قايمقام نقيب السادة الاشراف افندي زيد شرفه ومفاخر العلما الكرام ونخبة المدرسين الفخام وزبدة العلماء العظام علماء المدينة ومدرسينها وصلحائها زيدة علومهم وفضلهم وصلاحهم ومفاخر الاماجد والاعيان وجوه واعيان المدينة وارباب التكلم ومقارشين الامور زيد مجدهم وقدرهم بعد التحية والتسليم بمراسم الاعزاز والتكريم والسوال عن خواطركم المنهى اليكم اطلعنا على عرضمحضركم المتضمن توارد الاخبار لطرفكم عن قدوم عسكر والي مصر الى ايالات بر الشام ودخوله الى غزة ويافة وانه

مرسل مراكبه بحرا وبوجه الفراسة تحققتم ان ذلك خروج على السلطان لزم عقدتم مجلس عمومي بحضور جميعكم وتفاوضتم بامر هذا الخارجي والجميع منكم بقول واحد وقلب واحد اتفقتم ان جميعكم عبيد حضرة ولي نعمتنا الدولة العلية والسلطنة السنية اعزالله انصارها وقوى شوكة اقتدارها واعدا لمن عاداها واصدق لمن صادقها وجميعكم بهذا الاتفاق كجسم واحد باطاعتنا وتحت اوامرنا وجميعا شرحتوه ووضحتوه حرفا بحرف صار معلوم فنخبركم ان الامر كما تحققتم ووالي مصر بوجه الخروج على السلطان تجرأ على الفعل الوخيم العواقب وارسل عساكره وتكناته المنحوسة لاجل الاستيلاء على هذه الممالك الشامية التي هي وايالت مصر ايضاً ملك حضرة مولانا السلطان نصره العزيز الرحمن ومن المحقق تقارب الاجل وحلول اوان زوال النعم اغراه لهذا الخروج الذي عواقبه الدمار والبوار وقلع الاثار ولقد اصبتم بما عقدتم عليه رايكم واتفقتم عليه بقلوبكم وهو بلا شك موجب لكم سعادة الدارين ولقد انحظينا الحظ التام من ارتباطكم للخدامة الصادقة امام حضرة ولي نعمتنا الدولة العلية صانها وحرسها رب البرية اذ نحن بحوله تعالى وقوته وباهر جلال عظمته بغاية القوة والاستعداد والنشاط التام لخدامة حضرة ولي نعم العالم وسبب امن وراحة بني ادم ظل الله الظليل سلطان السلاطين وخاقان الخواقين اعزه الله بنصره المبين وقهر اعداه الخاسرين انكان بلقاء هذا الخارجي وضربه وتدميره وانكان بجميع الخدامات والماموريات فانتم يلزم تقووا اعتصابكم واعتضادكم هذا وتنشطوا العزايم الاسلامية بهذا الاتفاق الحسن الذي فيه خير الدنيا والاخرة وتكونوا منتظرين اوامرنا فبناء على ذلك اصدرنا لكم بيورلدينا هذا من ديواننا في قلعة النصر داخل دار الجهاد محروسة عكا المحمية بوصوله واطلاعكم على مضمونه تعتمدوه غاية الاعتماد وتداوموا على خير الدعا بالاماكن والاوقات المظنونة الاجابة بدوام سرير سلطنة حضرة مولانا السلطان نصره العزيز الرحمان وخلد سرير سلطنته العظما الى انتهاء الزمان وانقراض الدوران

هذا ما لزم اخباركم والدعا في ١١ ج سنة ٢٤٧ قيد سند ١٤ ج سنة ٢٤٧

اثبات الاصلية واقرار المضمون : نحن نرجح لا بل نكاد نؤكد ان ه
الرسالتين اصيلتان خاليتان من التزوير وذلك للاسباب نفسها التي خولت لنا
الاستنتاج في المقالة الماضية . ويصح لنا بناء على هذا الاثبات للاصلية ان نقول
كما قلنا وقتئذٍ ان اهالي دمشق وعدت عبدالله باشا خيراً فقال انه اتعد وانها
انها فعلت ذلك لخروج محمد علي باشا على السلطان وان عبدالله شدد عزائمهم و
قلوبهم . وكما اضطررنا في مقالتنا الماضية ان نطلب التزكيات الفنية لاثبات
عبدالله باشا في سبب النزاع بينه وبين محمد علي باشا هكذا نجد انفسنا مضط
لطلب تزكيتين على الاقل مستقلتين الواحدة عن الاخرى لتأييد كلام الدمش
في سبب انقباضهم عن اسعاف الباشا المصري ومقاومتهم اياه . ولما كان هذا
والنوع من التزكيات الفنية غير متوفر لدينا الان لا نرى مناصاً من الا
بالقول ان الدمشقيين « قالوا » انهم قاوموا المصريين لان هؤلاء خرجو
السلطان وانهم — اي الدمشقيين — اشتهروا بتعصبهم ومحافظتهم على ال
القديمة دينية كانت ام اجتماعية[1]

ولكن هل هذا كل ما في الامر ام هنالك دُخلة مكنونة لا بد لنا من
بعضها واماطة اللثام عنها . نقول نحن على مرية من امر مقتل الباشا كما ور
الرسالة الاولى وقد ترددنا ولا نزال نتردد في صحته لغرابته ومخالفته الا
المعروفة . قال المؤرخ الدمشقي المجهول واضع مخطوطة برلين المشار اليها س
« وفي الساعة الواحدة من الليل احضروا كيخية سليم باشا وخاله من بيت المفتي
عنده وقالوا لهم ان الوزير طالبكم ودخل اولاد البلد الساعة الرابعة من الليل
كيخية الوزير وخاله والقبجي والسلحدار والخزندار والمهردار وكان الوزير

---

(١) اطلب كلام المسيو بودان فنصل فرنسه في دمشق آنئذٍ في المجلد الثاني من رحلة بوجولا
lat ; B— Voyage dans l'asie Mineure etc. (Paris, 1841) ١٦٥ — ١٦٩

في القاعة فسمع العكرة بارض الدار فسكر الباب من جوا وكان عنده مملوك وطواشي صاروا يدكوا له وهو يقوص حتى قتل ستة انفار من اولاد البلد وبعد هذا طلع ناس الى ظهر القاعة حفروه ونقبوه وقوصوه فرموه واناس علقت النار في باب القاعة ... وهو وقع من القواص فلحقته النار احترقت ذقنه وشواربه وتشاوظ كل بدنه ولا يعاد ينعرف شكله »[1]. ويزكي قول هذا المؤرخ ما جاء في الجواب على اقتراح الاحباب للدكتور مشاقه وفي حوادث الشام ولبنان لخائيل الدمشقي وكتاب الروضة الغناء لنعمان القساطلي[2]. ولا يخفى ما في هذا القول المزكى من المناقضة لقول الدمشقيين انفسهم فهم يقولون ان سليماً قتل نفسه والمؤرخون المعاصرون يقولون انهم هم قتلوه. فاي القولين نقبل؟ نقول تدل محتويات المخطوطة البرلينية ان كاتبها كان دمشقياً[3] من وجهاء الطائفة الارثوذكسية المسيحية وانه كان في امكانه ان يشاهد بعض ما يرويه عن مقتل الباشا وانه كان يدون رواياته حين وقوع حوادثها او بعد ذلك بزمن يسير. هذا ولا نعرف له مصلحة كان بامكانه ان يخدمها بقوله هذا او ظروفاً كانت تضطره لتزوير شيء عن مقتل الباشا او انه كان يتودد للعامه فيكتب ما يرضيهم فهو لم يذكر اسمه ولا مهنته ولم يقصد نشر مخطوطته على ما نعلم[4]. وكذلك فان الدكتور مشاقه ونعمان القساطلي اشتهرا بنباهتهما وتدقيقهما وامانتهما ايضاً[5]. اما عريضة الدمشقيين فانها وضعت لاستعطاف اولياء الامر آنئذٍ وكتبها اناس اتهموا بقتل الوالي نفسه وعرفوا بانحراعهم من جراء ذلك

---

(١) المذكرات التاريخية (طبع حريصا) ص ٢٩—٣٠

(٢) ص ٢٣٣ من الاول وص ١ د—٥٢ من الثاني وض ٨٨ من الثالث

(٣) او من المقيمين في دمشق

(٤) هذه حقائق توصلنا اليها بالطريقة نفسها التي شرحناها في مقدمتنا لمخطوطة القس انطون الحلبي —حروب ابراهيم باشا في سورية وبر الاناضول— والتي خولت لنا آنئذٍ شيئاً من هذا الاستنتاج نفسه

(٥) هذه شهادة والد الاستاذ ستيورات كروفرد الذي عرف مخائيل ونعمان معرفة جيدة وهي شهادة الكثير من معارفهما ايضاً

وخوفهم وجبنهم[1] . وبناء على هذا كله نرى انفسنا مضطرين الان ان نرجح صحة اقوال المؤرخين المعاصرين ونكذّب رواية الاعيان الدمشقيين .

فاذا صح ان الدمشقيين قتلوا واليهم وانهم حذروا بطش الاستانة من جراء ذلك فاظهروا علامات الجبن والخوف وانهم فاوضوا عبدالله باشا في الامر وطلبوا اليه ان يتوسط بينهم وبين الاستانة ويستعطف السلطان عليهم . واذا صحت الاشاعة انه كان لعبدالله يد في مقتل الباشا — اذا صحت هذه الامور جميعها افلا يصح لنا ان نقول ان ما اقترفه الدمشقيون من الاثم في مقتل الباشا وانخراعهم من عقابه ربما كان سبباً من اسباب اتحادهم مع عبدالله باشا ومقاومتهم للفاتح المصري ؟

---

(١) اطلب كلام الرحالة فيدال الافرنسي المشار اليه سابقاً وكلام المؤرخين الافرنسيين كادالفان وبارو ايضاً